

اسماعيل باشا صبرى

شيخ شعراء العصر

١٨٥٤ - ١٩٢٣ م

بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاته

- ٣ -

عرف القارىء مما نشرناه على صفحات هذه المجلة الزهراء عن إسماعيل باشا صبرى ، كيف أن أدباء العصر ، قد اتخذوا منه زعيماً لهم ، أو عميداً لمدرسة الشعر الحديث ، وذلك لما تحقّقه في شعر الرجل من الروعة وروح التجديد ، وفي نقده وملاحظاته من الدقة وأصالة الرأي ؛ هذا ويلوح لى أن « صبرى » لم يكن أستاذاً لمشاهير أدباء جيله فحسب ، ولكنّه كان فوق ذلك أستاذاً لشهيرات أدبيات العصر أيضاً .

فيؤخذ من حديث أذيع لنا بعة الشرق الآنسة مى ، أن من أهم البواعث التى أثرت فى مجرى حياته : تلك الاجتماعات الأدبية الراقية ، التى كانت تنعقد فى صالونها فى كل يوم ثلاثاء برئاسة إسماعيل صبرى . وقد قالت هذه الأدبية العظيمة الفذة : إنها اقتبست تهذيبها العربى مما كان يدور فى الصالون من البحوث الطريقة الشائقة باللغة العربية النصيحة . وإنى أحفظ لشاعرنا أغرودة من الشعر العاطفى الرقيق ، يحن فيها إلى تلك الاجتماعات الثلاثية ، والتى كان يرأسها بدار « مى » ؛ كما يحن الطائر الصادى إلى غدير الماء ، وهذه هى الأغرودة :

روحى على بعض دور الحى حائمة كظامى الطير تواقاً إلى الماء !
إن لم أمتع « بى » ناظرى غداً أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء !
حفظت وأنا يافع هذين البيتين ، يتخللهما تشطير بديع محكم ، وقد عثرت عليهما منشورين بمجلة « سركيس » ، بيد أن الذاكرة - قاتلها الله - قد خاتنى الآن فى حفظ اسم ذلك الأديب السورى صاحب هذا التشطير :

« روحى على بعض دور الحى حائمة » ترتاد موضع أحلامى وأهوائى
دار لمية أنوئها وأطلبها « كظامى الطير تواقاً إلى الماء »
« إن لم أمتع بى ناظرى غداً » أو لم تمتع أغاريدى بإصغاء

أنكرت يومى بل أنكرت ليلى بل «أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء» !
ولقد كان لشيخ الشعراء ولع بالموسيقى شديد ، جعله يهتم بترقيتها ، ويسعى لتهديب
الأناسيد، وله مقاطيع وأدوار عدة بالعامية والفصيحة ، وضعها خصيصاً للتأحين ، وهو المؤلف
لهذا الدور البلدى لأحد الموقعين على نفقات العود :

قدك أمير الأغصان	من غير مكابر
وورد خدك سلطان	على الأزاهر
دا الحب كله أشجان	يا قلب حاذر
والصد ويا الهجران	جزا المخاطر

إلى آخر الدور :

وإنى سأعرض على القارئ أدواراً من أغانيه الفصيحة مع مختاراته فى ذيل المقال ، ولا
شك فى أنها ستذهب بحيال القارئ إلى ما كان عليه الغناء العربى فى عهد العباسيين الزاهر !
وفى هذه النادرة الطريفة التالية، لبرهان قاطع على أن شاعرنا كان مرجعاً لشعراء الألفانى
كما كان مرجعاً لسواهم .

قال الدكتور هيكل : « روى لى أحمد شوقى بك حادثة فى غاية اللطف ، تلك أنه كان
يوماً عند « صبرى » وهو يشغل منصب النائب العمومى ، وكانت مصر تموج أفكار أهلها بحادث
سياسى وقع فيها ، وفيما هما جالسان يتحدثان ، دخل حاجب ومعه مظروف حكومى كبير
فقطع ذلك حديثهما ، وانتظرا أن يجدا فيه إشارة إلى ذلك الحادث السياسى ، وما يجب اتخاذه
من الاجراءات بإزائه ، فلما قضى صبرى باشا المظروف وقرأ ما بداخله هز رأسه مبتسماً !!
ذلك أن على باشا شريف رئيس مجلس الشورى يومئذ ، قد بعث فى هذا المظروف « بدور
غنائى » وهو يطلب إلى النائب العام إصلاحه . »

« ولهذه المناسبة قص صبرى لشوقى حادثاً وقع فى قرطبة حين كانت الدولة الإسلامية على
وشك الزوال منها ، وكانت طرقها تجرى دمماً لاقتتال الناس فيها ؛ ذلك أن فتاة أطلت من
نافذتها منادية صديقة لها فى نافذة مقابلة ، تطلب إليها وترأ تصلح به عودها !
وكذلك يطلب رئيس مجلس الشورى إلى النائب العام ، أن يصلح له دوراً غنائياً فى
حين أن البلاد المصرية تموج بحادث سياسى لاتعرف نتائجه . »

يحمل بى هنا أن أكتفى بما دوتته من تاريخ حياة الرجل باختمار ، وبما سقته من مستطرف
نوادره التى تدل على مكانته المحترمة الملحوظة بين أدياء العصر ، والمزايا الجملة التى تقرد بها ،
وهأنذا أمهد لما سأختم به موضوعى من مختارات الشاعر . لقد نظم شاعرنا فى مختلف المواضيع
كالمدح والثناء والغزل والحكم والفلسفة حتى الفكاهة ، وكان موفقاً فى كل ما نظم فيه بنوع

عام ، ولكنه قد وفق كل التوفيق ، بنوع خاص ، فيما نظم من الشعر الغنائى والغزل الوجدانى .
ولعل السبب فى ذلك ، هو شدة حب الشاعر للمرأة وتقديسه إياها ، وشاعرنا لم يتصبب
بامرأة معروفة بالذات ، ولم يعشق عشقاً أثبات دأراً كما كان يعشق عمر بن أبى ربيعة وبشار بن
برد ، وأضرابهما من الشعراء الشهوانيين ، حاشا ! بل كان يحب المرأة من حيث هى امرأة ، أو
قل بعبارة ثانية إنه كان يحب الأنوثة حباً قدسياً أفلاطونياً غنياً عفيفاً ! !

« ويقول أحد الأساتذة : إن صبرى كان ينظر إلى المرأة نظر المصور الماهر إلى دمية جميلة
يجد فى جمالها ظلاً يتروى فيه من هجير الحياة ! وينظم فيها المقاطيع الشعرية الرائعة ، شأن
المثال الذى يفضل نحت الدمي الصغيرة على تشييد هرم جليل ! » .

وانظر إليه فى هذا البيت المبكر المعنى ، كيف تخيل المرأة مخلوقاً ملائكياً روحانياً ،
ليس للماء ولا للطين أى دخل فى تكوينه ، قال :

أنت روحانية لا تدعى أن هذا الحسن من طين وماء ! !

ونجد شوقى قد اقتبس هذا المعنى الجديد وصاغه فى بيته :

صوتى جمالك عنا إننا بشر من التراب وهذا الحسن روحانى
وأنت إذا رجعت إلى مطلع عينية شوقى التى جارى بها عينية الفيلسوف الرئيس ابن سينا وهو :
ضى قناعك ياسعاد أو أرفعى هذى الخاسن ماخلقن لبرقع
لوجدت أن شوقى قد أخذ هذا المعنى أيضاً من قول أستاذه صبرى حيث قال :

واسفرى تلك حلى ماخلقت لتوارى بلثام أو خباء
ولا غرو فشوقى له حسناته فى تقليد من كان معجباً بهم من الشعراء الذين تقدموه وعاصروه .
ونلاحظ أن صبرى نفسه - فى أيام شبابه - كان مقلداً ، يجرى وراء هذا وذاك من فطاحل
الشعراء الأسبقين ، يقلدهم ويستعيد طريف معانيهم ، ولا سيما البحترى الذى كان يعجب به ويستظهر
ديوانه عن ظهر قلب ، ولكنه بعد أن خلع عنه رداء الأربعين ، امتلاً شمره بروح تجديدية
محسوسة ، تطالعك من خلال ألفاظه الرائعة ودقيق معانيه ، ولكأنى به كان يقول مع القائل :

سمعت كل قديم عرفته فى حياتى

إن كان عندك شيء من الجديد فهات

« وقد قال أحد الأدباء : وكأنى بصبرى قبل بلوغه سن الأربعين ، كان يفتح كتاب الوجود
يتلص فيه الطريقة البكر التى لم يقرعها شاعر قبله ، ولكنه لم يهد إليها إلا بعد أن حال لون
النهار وكان مساء ، فجاء شعره كالشفق المذهب يلمع نوره فى أفق الحياة عند الغروب ! ! » .
وشعر صبرى على تنوع موضوعاته يتسم بسمت الرقة ، ولا أقصد تلك الرقة اللينة المائعة

التي تولد في النفس عوامل التراخي والاستسلام ، كالتى يصطبغ بها شعر بعضهم من المتصوفة والزهاد ، والذين لا أمل لهم يسعون لتحقيقه في هذه الحياة ؛ وإنما أقصد الرقة التي لها من جمالها قوة ومن روعتها تماسك ، الرقة التي تنبه أحاسيس النفس وتشحذها ، وتلأججها ، القلب حباً وأملًا وحياة ! الرقة التي تمثلها نسجات السحر المنعشة بخطراتها ، والزهرة بشذاها وحلو ابتسامتها ، والقمر ببهاء طلعه وصفاء نوره وتلألؤه !

ولأعرج من هنا إلى حديقة أشعار شيخ شعرائنا ، لىكى أنسق بها باقة من زهر الشعر أقدمها للقارئ وأنا ضمين بالألا يعترض القارئ ، في بيت ما ، رأى غامض ، أو كلمة نائية ، أو تشبيه جاف معقد أو معنى مبتذل ، بل سيجد القارئ في هذه المختارات والمقتطفات ألفاظاً متجاوبة ، وروياً موسيقياً مطرباً ، يسرى رنينه في النفس كما يسرى النسيم البليل في جسم المحرور . وأظن أن ليس من الانصاف أن أغفل ذكر تلك الكلمة البليغة الجامعة ، التي شرح فيها شاعر القطرين الطريقة التي يجرى عليها شيخ الشعراء في نظم أشعاره ، قال مطران :

« أكثر ما ينظم للخطرة تخطر على باله ، من مثل حادثة يشهدها أو خبر ذى بال يسمعه أو كتاب يطالعه ، ولما كان لا ينظم للشهرة بل لمجاعة نفسه على ما تدعوه إليه : فالغالب في أمره أنه يقول الشعر متمشياً ، وربما قاله بحضرة صديق وهو مائل عنه بعنقه ، وله بين حين وحين أنه يمثل ما تنطق لفظة « إيه » مستطيلة ، ينظم المعنى الذى يعرض له في بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة ، أو قلما يزيد على هذا المقدار ، إلا حيث يقصد قصيدة وهو نادر ، شديد النقد لشعره ، كثير التعديل والتحويل فيه ، حتى إذا استقام لما يريد ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب ، أهمله ثم نسيه ، وهكذا يمر الآن بعد الآن ، فيجيش الشعر في صدره ، فيرسل بيته إطلاق زوجي الطائر فيذهبان في الفضاء ، ضاربين من أشرها بأجنحة ملتزمة ، شادين على توقيع العروس ، إلى أن يتواريا وينقطع نغمهما من عالم النسيان ، ذلك هو الشعر للشعر » .

مختارات

قال من قصيدة دعاها تمثال جمال:

إن هذا الحسن كالماء الذى	فيه للأفئس رى وشفاء
لا تزودى بعضنا عن ورده	دون بعض واعدلى بين الظاء
أنت يم الحسن فيه ازدحمت	سفن الآمال يزجيها الرجاء
أقبلنى نستقبل الدنيا وما	ضمنته من معدات الهناء
واسفرى تلك حلى ما خلقت	لتوارى بلثام أو خباء
أنت روحانية لا تدعى	أن هذا الحسن من طين وماء !
وازعى عن جسمك الثوب بين	للملا تكوين سكان السماء

وأرى الدنيا جناحى ملك خلف تمثال مصوغ من ضياء !
نشرت هذه القصيدة الحالية اللفظ ، البديعة المعنى ، لأول مرة برمتها فى سنة ١٩٠١م ،
بالجريدة المصرية التى كان يقوم بإصدارها خليل مطران ، وبالنسبة لطرافة القصيدة وطلاوتها
علق عليها يقول :

« كانت الغزليات قبل الآن ، فيها ما عيس الآداب العمومية ، من ذكر القدود والنهود ،
والضم والعناق ، ورقة الخصر وكثافة الردف ، ولقد كان هذا من العام ، حتى فى قصائد
المدح الملوكة والأمراء ، وهذا مالا ترضاه الأذواق السليمة فى هذه الأيام ، وبسكرة علينا
أدباء الغرب ، وقد سئل سعادة المفضل إسماعيل باشا صبرى نظم أبيات تنقل إلى اللغة الفرنسية ،
وتجعل فى كتاب يؤلف الآن فى مختارات الشعر العربى قديمه وحديثه ، فجادت قريحته الوفادة
بهذه الأبيات التى جاءت على الطريقة الصوفية ، من حيث سمو الخيال ، ونزاهة المقصد ، وغرابة
الوضع ، ولعل هذه القصيدة أحسن ما جمع فيه بين الأسلوبين العربى والغربى فى نظم الشعر » .
ومن غزله الذى جاوز فيه حدود الإبداع ولم يسبقه إلى معناه شاعر ما ، قوله :

ياراحة القلب يا شغل الفؤاد صلى
متى أنت فى الحالين دنياه
زنى الندى وسيلى فى جوانبه
لطقاً يعم رعايا اللطف رياه
ريحانة أنت فى صحراء مجدبة
من الرياحين حياناً بها الله !
إن غاب ساقى الطلائع أوصد ، لا حرج
هذا جمالك يغنيننا محياه !

ومن غنائياته السائرة :

أصبر فؤادى فما الذكرى بنافعة
ولا بشافعة فى رى ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمناً
حمل الصبابة فاختق وحدك الآنا
هلا أخذت لهذا اليوم أهيتة
من قبل أن تصبح الأشواق أشجاناً ؟
لهفى عليك قضيت العمر ممتحماً
فى الوصل نارا وفى الهجران نيراناً !
ومنها أيضاً هذه الأنشودة :

يا آسى الى هل فتشت فى كبدى
وهل تبينت داء فى زواياها ؟
أواه من حرق أودت بمعظمها
ولم تزل تمشى فى بقاياها !
يا شوق رفقاً بأضلاع عصفت بها
فالقلب يخفق ذعراً فى حناياها !

وقال فى الحماسة عن لسان فرعون يخاطب الشعب ويستنهض همته :

لا التوم قومى ولا الأعوان أعوانى
إذا ونى يوم تحصيل العلا واث
ولست إن لم تؤيدنى فراعنة
منكم بفرعون على العرش والشان
لا تقربوا النيل إن لم تعملوا عملا
فماؤه العذب لم يخفق لكسلان
ردوا الحجر كدأ دون مورده
أو فاطلبوا غيره ربا لظان
لا تركوا مستحيلا فى استحالته
حتى يميظ لكم عن وجه إمكان

وكان أستاذ شعرائنا يسير في يوم من أيام الصيف راجلاً بضاحية الجزيرة ، فر في طريقه بدوحة وارفة الظل ، وجوقة من شاديات الطيور ، تنغني على أفنانها وتتطارع الأناشيد وهي آمنة من حر الهاجرة الذي اصطلى هو به ، فأجاش هذا المشهد عاطفة الشعر في داخله ، فوقف يستظل بأغصان هذه الدوحة ، ويعاتبها عتاب شاعر رقيق حساس ، ويسأل عمن يعمره جناحي طائر صادق ، لكي يعلل الدوحة ويقضى سحابة العمر مترنماً ، كما هي عادة العنادل . قال :

عار عليك وهذا الظل منتشر فتك الهجير بمنشلي في نواحيك

فمن معبري جناحي طائر غرد كي أصرف العمر شدوا في أطالك !

وقد ارتجل هذه الأبيات الآتية التي تسيل كلماتها دموعاً ، يوم وفاة الطفل الوحيد لصديقه

الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد المدعو عمراً :

يامالي العين نوراً ، والفؤاد هوى ، والبيت أنساً ، تمهل ، أيها القمر !

لا تخل أفقك بخلفك الظلام به والزم مكانك لا يحلل به السكدر

في الحى قلبان بانا يالعميمهما وفيهما إذ قضيت النار تستمر

وأعين أربع تبكي عليك أسي ومن بكاء الشكالي السيل والمطر !

قد كنت ريحانة في البيت واحدة روح فيه ويفقدو فتحها العطر

ما كان عيشك في الأحياء مختصراً إلا كما عاش في أكمامه الزهر !

فارحل تشيعك الأرواح جازعة في ذمة الله بعد القبر يا عمرا

ونختار له هذه الأبيات من قصيدته المؤثرة في رثاء بطرس باشا غالي :

تبكي المروءات على بطرس ذاك الهمام الماجد الأروع

ففتشت ، لما لم أجد مقلتي كفواً ، عن الفضل ليبيكي معي !

فقل لي : قد سار في إثره يوم دفناه ولم يرجع !

يا مجرياً دمع الملا أبحراً أدركهم يامرقة الأدمع

يانازلا بين وفود البلى آنستهم ياموحش الأربع

عيني فيك اليوم قبطية تروى الأسي عن مسلم موجع !

يهم من وجد ومن لوعة في الجانب الأيسر من أضلعي !

يامن سقاني الجهم من وده هذا ودادي كله فاكرع !

وقال من قصيدة يمتدح بها صاحب السمو الأمير عمر طوسون باشا ، بمناسبة إقاماته للجرحى

الذين ابلاوا في الحرب التركية ضد البلقان :

لك الإمارة والأقوام ما برحت بكل عالي الذرا في الكون تأتمر

لوم ترثها لما ألفت أعنتها إلا إليك خلال كلها غرر

يا ابن الأولى لو أطلوا من مضاجعهم يوماً عليك لقالوا : إيه يا عمر !

أعدت أيامهم فى مصر ثانية حتى توهم قوم أنهم نشروا !
وسرت سيرتهم حتى كأنهمو إذا خطرت بأرض مرة خطرنا !
لله درك كم نبت من هم تننى على أهلها الآصال والبكر
وكم تعهدت جرحى من أسود وغى إن يكشر الدهر عن أحداثه كسروا !
ومن قوله المملوء بروح الحكمة والحقيقة :

غاض ماء الحياء من كل وجه فغدا كالح الجوانب فقرا
وتفشى العقوق فى الناس حتى كاد رد السلام يحسب برا !
تعب الفيلسوف فى الناس عصراً وتولى السرائر الدين عصراً !
والورى طارد إزاء طريد وعقاب يمسى يطارد صقرا
عبر كلها الحياة ولكن أين من يفتح الكتاب ويقرا ؟
وهاك مايدل على وفاء الشاعر حتى للخائنين من أصحابه :

إذا خانتى خل قديم وعقنى وفوقت يوماً فى مقاتله سهمى
تعرض طيف الود بينى وبينه فكسر سهمى فاثبت ولم أرم !

يزعم بعض الفلاسفة أن للدين لوناً يختلف عن لون الفلسفة كل الاختلاف ، بمعنى أنه إذا
"كان مثلاً للدين لون أبيض ، فيكون للفلسفة لون أحمر " وأنا أعتقد أن الانسان متى وفق
فى مزج هذين اللونين ، تولد هنالك لون آخر رائع يبهل النفس ، وأستطيع أن أسمى هذا اللون
بالاعتدال وعدم التطرف فى رأى ؛ وهذا مايمكن صبرى أن يفعله فى هذه المقطوعة الفريدة
فى بابها ، التى جمع فيها بين شطط الآراء الفلسفية وروحانية الدين ، على أنى لا أزعج أن
للرجل مذهباً خاصاً به فى الفلسفة كان يعمل له ويدعو الناس إليه ، إنما غاية ما هنالك أن هذه
الآيات تدل على ما يمكنه قلبه الشاعر الكبير من التعظيم لمبدع هذا السكون العظيم .
قال يناجى الله ويسأله فى ضراعة وابتهاال :

يارب أين ترى تقام جهنم للظالمين غداً وللأشرار ؟
لم يبق عقوك فى السموات العلى والأرض شبراً خالياً للنار !
يارب أهلنى لفضلك واكفى شطط العتول وفتنة الأفكار
ومر الوجود يشف عنك لى أرى غضب اللطيف ورحمة الجبار !
يا عالم الأسرار حسبي محنة علمى بأنك عالم الأسرار
أخلق برحمتك التى تسع الورى ألا تضيق بأعظم الأوزار !

ومن فلسفياته أيضاً الآيات الآتية ، التى يقف فيها بجانب فيلسوف المعرة «أبى العلاء» ،
ويرجع كفة الموت الراجحة بالراحة على كفة الحياة التى لا تحتوى على شئ ، عدا التعب قال :
ان سئمت الحياة فارجع إلى الأرض تم آمناً من الأوصاب !

تلك أم أحنى عليك من الآم التي خلقتك للأنعاب !
 لا تخف ، فاللمات ليس بباح منك إلا ما تشقى من عذاب
 كل ميت باق وإن خالف العذوان مانص في غضون الكتاب !
 وحياة المرء اغتراب فإن ما ت فقد عاد سالماً للتراب !

نهاية الكنار

وفي أواخر أعوامه أذبلت الشيخوخة ديباجة^(١) هذا الكنار أو بالحري «ملك الكنار»، وألم به داء عضال أخفت صوته وأهاض جناحيه، وجعله ضريح الوساد لا يستطيع أن يغادر وكره، وهذا المرض هو داء الأزمة الصدرية، وكأني به حين ازدياد وطأة الأزمة عليه يتلوى في فراشه ألىاً وهو يرجع قوله مهيأاً بالموت :

ياموت هأنذا نخذ ما أبقت الأسقام منى
 بينى وبينك خطوة إن تخطها فرجت عنى

ويقول الأستاذ أنطون الجليل : « كان الجميع يرضون عن شعر صبرى إلا صبرى نفسه حتى كأنه يقول إن أجمل شعرى لا يزال فى صدرى لم أتمكن من نظمه بعد»، ويقول الأستاذ أيضاً : « ماعدنا صبرى مرة فى أيام مرضه إلا وسألنا : هل من شعر جديد فى البلد ؟ وهكذا شأن كبار القواد، متى أحيوا إلى الاستبداد يرتاحون إلى سماع أخبار المواقع التى يضع خططها ونظمها غيرهم » .

هذا وفى الحادى والعشرين من شهر مارس سنة ١٩٣٣ م ، امتدت يد الموت القاسية إلى قينارة الأدب العصرى، فتناولتها وانتزعت منها - فى غير رحمة ولا إشفاق - وتراً حالى الزنين متنوع النغمات ، وهذا الوتر هو شيخ شعراء العصر ، إسماعيل باشا صبرى ، فلا غرو أن :

جزع الحنى لنعيه وبكاه شبان وشيب !

المبارك ابراهيم

[أم درمان : سودان]

(المعرفة) اتفق وجود الأستاذ الهراوى وقت تصحيح القسم الأخير من هذا المقال، فلاحظ أن هذه العبارة غير متفقة والواقع . والحقيقة التى يعرفها من معاشرته للفقيد حتى آخر أيامه أنه استخف بكل شىء فى الحياة، ومن بينها الشعر على قدرة منه عليه .
 ونذكر بهذه المناسبة أن صهره الأستاذ محمد بك عزت المستشار بحكمة الاستئناف قد جمع شعر الفقيد المشتت فى الصحف والأقواد، وهو الآن يعده للطبع .